المكاتبة الرسمية

بين الاحبار الرومانيين وملوك مصر

نقلًا عن القلقشندي

نشرها الاب هنري لامنس اليسوعي

مما ورد في الجزء الرابع من كتاب الصبح الاعشى في كتابة الانشاء لابي العبّاس القلقشندي الذي وصفناهُ غير مرَّة في المشرق (٣: ٣١٠ و ٤: ١٤) فصلٌ مطوَّل هذا عنوانهُ (ص ١٦٤): « في المكاتبة الى الملوك بالجانب الشمالي من الروم والفرنجة على اختلاف اجناسهم. وجميعُهم معتقدُهم معتقدُ الملكانيَّة » وقد جمع المؤلف في هذا الفصل اثنتي عشرة مكاتبة ضمّنها الدساتير التي ينبغي على الكتّاب ان يراعوها في مكاتباتهم الرسميَّة الى ملوك الغرب باسم الدولة المصريَّة في ذلك العهد. والاولى من هذه المكاتبات يدعوها القلقشندي « مكاتبة الباب » احببنا اثباتها في هذا العدد من المشرق الذي خصصناهُ باليوبيل البابويّ

ولا بدَّ من ان نقدّم على هذه النبذة بعض ملاحظات من شأنها ان تبيّن حقيقة معناها وتنفي عنها الشبهات فنقول:

انَّ تاريخ القرون الماضية ينبئنا بالعلائق الوديَّة والمراسلات التي جرت بين الاحبار الرومانيين وملوك مصر. ومما ذُكر في تاريخ سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٤ م) انَّ الحبر الروماني اوفد الى الملك الناصر محمد

وفدًا خصوصيًا . وفي الطرفة الآتية ما يؤيد هذا الامر كما سترى

اما منطوق هـذه المكاتبة كما رواهُ القلقشندي فهو غاية في الاهمية يبين جليًا ما نالهُ الاحبار الاعظمون في ذلك العهد من سمو المرتبة وشرف المقـام بين الملوك . وهذا يظهر حتى من تقـديم القلقشندي لهذه المكاتبة على بقية مكاتبات الملوك دون استثناء

ومما يخصُّ بهِ القلقشندي بابا رومية انهُ يدعوهُ « خليفة النصارى » فيشير بذلك الى عظم منصبهِ . وفي قول صاحب التثقيف « انهُ بمنزلة القان عند التتار » ما يزيد في تعظيمهِ لان القلقشندي يفيدنا في محلّ آخر من كتابهِ (ج ٤ . ص ٥٨) بأن قان التتار كان اول ملوك ذلك العصر وان الكتابة اليهِ تكون بالقطع البغدادي وبحروف الذهب . وقد سبق الى هذه الافادة صاحب كتاب التعريف بالمصطلح الشريف المطبوع في القاهرة (ص ٤٥)

ومن الالقاب التي اوردها القلقشندي المختصة ببابا رومية انهُ « عظيم الملّة المسيحيَّة ومالك ملوك النصرانيَّة وملاذ البطاركة » وكلّ هذه الاوصاف لا تدع شبهـةً في انَّ ملوك مصر في ذلك العهـد كانوا يعرفون للاحبار الرومانيين قدرهم ولم يساووا بينهم وبين بقيَّـة البطاركة الشرقيين

ومن اعجب الألقاب التي خصَّ بهـا القلقشندي بابا رومية انهُ دعاهُ « بطريرك الملكيَّة » وفي هذا الاسم ما يدلُّنا على حادث تاريخي مهم وهو انَّ الشقاق بين الكنيسة البطرسيَّة وكنيستي انطاكية والاسكندريَّة الملكيَّتين الداخلتين في حكم ملوك مصر لم يتمّ في ذلك العهد . ولنا على ذلك دليل آخر اوضح بيانًا في كتاب التعريف

(ص ١٤١ و ١٤٤ و ١٤٥) الذي يستشهد بهِ القلقشندي في كلّ صفحة من كتابهِ صُبح الاعشى. قال صاحبهُ القاضي شهاب الدين ابن فضل الله العمري الدمشقي في « وصيَّة بطريرك النصارى الملكانيين(١» التي يوصي بها السلطان البطركَ الملكيّ عند ما يمنحهُ التقليد الرسمي برتبتهِ: « واعلم بانك في المدخل الى شريعتك طريقٌ الى الباب » يريد انهُ خاضعٌ لاوامر بابا رومية وانّهُ بمنزلة الطريق التي تؤدي الى غاية اسمى وارفع. وكذلك جاء في مقدّمة الوصيَّة التي يوصي بها السلطان بطريرك اليعاقبة ما نصُّهُ: « اذ كان لا يدين بطاعة الباب الذي هو رأس الملكانيين » فدلّ بهذا القول على انَّ بطركي انطاكية ومصر خاضعان للباب بخلاف بطرك اليعاقبة

مكانة الباب (٢

« وهو بطريرك الملكيَّة القائم عندهم مقام الخليفة (٣. والعجب من جعلهِ في التثقيف (٤ بمنزلة القان عند التتار. والقان انّما هو بمنزلة ملكهم الاكبر والباب ليس من هذا القبيل (٥ بل اليهِ امر الديانة

١) هكذا ورد اسم الملكيين في هذه المكاتبات الرسمية وربّما ورد على صورة الملكانيّ بالهمزة بدلًا من الواو (راجع المشرق ٥: ٣)

٢) الباب عند كتبة العرب كالبابا عندنا وهو ابو الاباء (راجع تقويم البلدان لابي الفداء ٢٠٩، ٢١١ الخ). وهم يدعونهُ ايضًا البابة والبابا والپاپا

٣) وهكذا دعا الشريف الادريسي بابا رومية (راجع ترجمتهُ الفرنسية لبوبرت (٢: ٢٥٣) وتقويم البلدان لابي الفداء ٢٠٩، ٢١٠

٤) التثقيف كتاب وضعهُ تقي الدين ابن مناظر الجيش ليستدرك بعض اغلاط وقعت في كتاب التعريف بالمصطلح الشريف ٥) قولهُ « الباب ليس من هذا القبيل » يريد انَّ البابا ليس هو كالقان ملكًا زمنيًا فقط كما ظنَّ صاحب التثقيف وانما تقديمهُ على بقيَّة الملوك لاجل مقامهِ الديني

حتى في التحليل والتحريم وقد تقدم في الكلام على المسالك والممالك عند ذكر البطارقة انهم يسمّون القسيس ونحوهُ ابًا ويسمّون البطريرك ابًا فاحبُّوا ان يأتوا على البطريرك (تمييزًا لهُ) ومعناهُ ابو الآباء. ثمَّ لمَّا غلب الروم على المملكة وعلت كلمتهم على اليعاقبة خصُّوا اسم الباب ببطريركهم فصار ذلك علمًا عليهِ. ومقرُّهُ مدينة رومية على ما تقدَّم هناك. ورسم المكاتبة اليهِ على ما ذكرهُ في التثقيف:

«ضاعف الله تعالى بهجة الحضرة السامية الباب الجليل القديس الروحاني الخاشع العامل بابا رومية عظيم الملَّة المسيحية. قدوة الطائفة العيسوية. مالك ملوك النصرانية. حامي البحور والخلجان. ملاذ البطاركة والاساقفة والقسوس والرهبان. تالي الانجيل. معرَّف طائفتهُ التحريم والتحليل. صديق الملوك والسلاطين والدعاء صدرت هذه المكاتبة...

«قال في التثقيف: هذا ما وجدتهُ مسطورًا ولم يُكتب اليهِ شيء في مدَّة مباشرتي ولا ادري في اي شيء كان يُكتب اليهِ ولا عرفت تعريفهُ ولم يتعرَّض لهُ المقرّ الشهابي بن فضل الله(١ في التعريف جملة. ورأيت في بعض الدساتير انهُ لم يُكتب اليهِ الَّا مرَّة واحدة (٢ وان الكتابة اليهِ في قطع النصف مع المكاتبة المتقدّمة»

---

١) يريد شهاب الدين ابن الفضل مؤلف كتاب التعريف. والمقرّ من المراتب الثامنة في ذلك العصر

٢) لعلَّهُ يشير الى الوفد الروماني في سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م)